المحاضرة الثانية: اختيار الموضوع

الأستاذ الدكتور: عبد الغاني عليوة.
قسم الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية.
جامعة محمد لمين دباغين سطيف2.

تمهيد

يُعدّ اختيار الموضوع من **أهمّ الخطوات المنهجية في البحث الأكاديمي الفلسفي**، إذ يشكّل اللحظة التأسيسية الأولى التي ينطلق منها العمل العلمي برمّته. فنجاح أيّ بحثٍ لا يتوقّف على دقّة التحليل أو سلامة النتائج فحسب، بل يتحدّد منذ البداية بمدى **وعي الباحث بموضوعه، وإدراكه لطبيعته، وإحاطته بإشكالاته الأساسية**.

ومن ثمّ، فإنّ عملية الاختيار ليست مجرّد مسألة تقنية، بل هي **موقف معرفي وفكري** يعكس قدرة الطالب على التمييز بين ما هو مطروح سابقًا وما يستحق أن يُطرح من جديد. لقد أشار مارتن هايدغر إلى أنّ "السؤال هو تقوى الفكر" (*Was Heißt Denken?*, 1954)، أي أنّ الفلسفة تبدأ حيث يظهر التساؤل العميق الذي يدفع الإنسان إلى التفكير في الأسس والمعاني. وبالقياس على ذلك، يمكن القول إنّ **اختيار الموضوع هو التعبير الأكاديمي عن هذا التساؤل الأصلي**، فهو لا يقتصر على اختيار عنوان، بل هو اختيار لمجال التساؤل نفسه.

الطالب حين يختار موضوعه في الفلسفة، لا يختار مجرد "شيء ليدرسه"، بل يختار **زاوية للنظر إلى الوجود والمعرفة والقيم** .ومن هنا تنبع أهمية هذه الخطوة في مقياس *تقنيات البحث الأكاديمي الفلسفي*، الذي يُعنى بتكوين الباحثين في مهارات التخطيط والتنظيم والتحليل الفلسفي الدقيق.

أولاً- طبيعة اختيار الموضوع في البحث الفلسفي

إنّ طبيعة اختيار الموضوع الفلسفي تتّسم بخصوصية تميّزها عن غيرها من مجالات البحث الأكاديمي الأخرى. فبينما تنطلق العلوم التجريبية من **مشكلات واقعية قابلة للملاحظة والقياس**، تنطلق الفلسفة من **إشكالات فكرية ومفاهيمية** ذات طابع تأملي ونظري.

وبمعنى آخر، لا تبدأ الفلسفة من الواقع المباشر، بل من **الوعي بالواقع**، ومن التساؤل حول معناه وحدوده، يقول بول ريكور في *الاستعارة الحية* :(1975)" الفلسفة لا تبدأ من الجواب، بل من السؤال الذي يجعل الجواب ممكنًا"، وعليه، فإنّ موضوع البحث الفلسفي لا يُختار اعتباطًا، بل هو ثمرة **تساؤل أصيل** نابع من تجربة فكرية يمرّ بها الباحث أثناء دراسته أو قراءاته أو احتكاكه بالإشكالات الراهنة.

ومن ثمّ، فإنّ الموضوع الجيد هو الذي يُثير **دهشة فلسفية** ويحفّز **الرغبة في الفهم والنقد.**

1- من المشكل إلى الإشكالية

الفرق بين "المشكل" و"الإشكالية" أساسي في الفلسفة. فـ"المشكل" هو سؤال محدّد يمكن الإجابة عنه بشكل مباشر، بينما "الإشكالية" هي **شبكة مترابطة من الأسئلة** تنفتح على احتمالات متعددة.

إنّ الموضوع الفلسفي ينبغي أن يكون إشكالية، لا مجرد مشكل بسيط، لأنّ الفلسفة تقوم على تعدّد وجهات النظر. فموضوع مثل *"هل المعرفة ممكنة؟ "*ليس سؤالًا واحدًا، بل يتضمن أسئلة عن طبيعة المعرفة، حدودها، علاقتها بالحس والعقل... إلخ.

2- الموضوع الفلسفي بين الأصالة والتقليد

ثمة الكثير من الطلبة يختارون مواضيع مكررة، ظنًّا منهم أن ذلك أسهل، غير أنّ هذا الخيار يضعف القيمة الأكاديمية للبحث. فالفلسفة، كما يرى **غاستون باشلار**، لا تتقدّم إلا بتجاوز العقبات الفكرية السابقة(*La Formation de l'Esprit Scientifique*, 1938) ومن ثمّ، فإنّ الموضوع الفلسفي الجيد هو الذي **يُعيد طرح المسائل القديمة بمنظور جديد**، أو **يناقش قضايا معاصرة في ضوء مفاهيم فلسفية رصينة.**

3- البعد التأويلي والنقدي

اختيار الموضوع في الفلسفة يستلزم من الباحث وعيًا **تأويليًا**، أي إدراكًا بأنّ الفلسفة ليست تكرارًا للنصوص، بل قراءة نقدية لها. فعندما يختار الطالب موضوعًا مثل *(الذات عند ديكارت)*، فإنّه لا يهدف إلى تلخيص نصوص ديكارت فحسب، بل إلى **تحليل مفهوم الذات وتحولاته** عبر التاريخ، وربطه بأسئلة الهوية والوعي المعاصرة.

ثانياً- معايير اختيار الموضوع في البحث الفلسفي

تتعدّد المعايير التي ينبغي أن يراعيها الباحث في مرحلة اختيار الموضوع. من أبرزها:

1- الأصالة والإشكالية

الأصالة تعني أن يكون الموضوع جديدًا أو يُقدّم معالجة جديدة لموضوع معروف، يقول عبد الرحمن بدوي في (*مناهج البحث عند الفلاسفة المسلمين* 1968، ص27) " الإشكالية هي العمود الفقري لكلّ بحثٍ فلسفي جاد، فهي التي تمنح الموضوع قيمته ومبرّر وجوده"، بالتالي، لا يكفي أن يكون الموضوع جديدًا من حيث العنوان، بل يجب أن **يتضمّن تساؤلًا حقيقيًا** نابعًا من نقاش فلسفي معاصر أو تراثي.

2- الملاءمة والاهتمام الشخصي

البحث الفلسفي يتطلّب زمنًا طويلًا وجهدًا تأمليًا عميقًا، لذا ينبغي أن يكون الموضوع قريبًا من اهتمامات الطالب. فالباحث الذي يختار موضوعًا لا يثير اهتمامه سيفقد الحماس، بينما الباحث المتفاعل مع موضوعه يكتسب قدرة على الإبداع والجدل، مما يعني أن الباحث هنا ينبغي أن يمتلك قدرات ذاتية وميولا تجاه الموضوع، أو ما يسمى بالاستعداد النفسي للبحث في الموضوع لإبراز قدراته الكامنة.

3- الوضوح والدقة المفهومية

من الضروري صياغة العنوان بدقة ووضوح، فالعنوان الغامض أو الفضفاض يدلّ على غموض فكري، فبدلًا من قولنا *(الفكر الحديث)*، يمكننا القول (*مفهوم الذات في الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى كانط)*، بهذا التحديد يصبح نطاق البحث واضحًا، مما يسهّل على القارئ والباحث معًا التعامل معه.

4- قابلية البحث والتحليل

ليس كلّ موضوع قابلًا للبحث الأكاديمي، يجب أن يكون **مدعومًا بمصادر كافية** ومتاحًا للمعالجة وفق المنهج الفلسفي. على سبيل المثال، موضوع مثل (الوعي *عند الفلاسفة العرب المعاصرين)* ممكن إذا توفّرت مصادر ومؤلفات معاصرة، أمّا إذا كان المجال فقيرًا بالمراجع، فسيصعب على الباحث تطويره.

5- التوازن بين العمومية والتخصيص

يجب تجنّب الإفراط في العمومية أو التخصيص، فموضوع مثل *(الحرية في الفلسفة الغربية)* واسع جدًا، بينما *(مفهوم الحرية عند جون ستيوارت ميل في كتابه "عن الحرية")* محدّد بشكل أفضل لمذكرة ليسانس أو ماستر، والهدف هو إيجاد **توازن يتيح العمق دون التشتّت.**

6- الأهمية العلمية والراهنية الفكرية

يجب أن تكون للموضوع قيمة فكرية، كما ينبغي أن يكون للموضوع **ارتباط بالقضايا الفلسفية الراهنة** مثل: الهوية، التقنية، البيئة، الذكاء الاصطناعي، العولمة، الإنسان ما بعد

الإنساني... فالموضوع الراهن يُظهر وعي الباحث بالتحوّلات الفكرية المعاصرة ويجعل بحثه ذا قيمة معرفية.

7- توفر المصادر والمراجع

لا يمكن الشروع في بحث فلسفي من دون التأكد من وجود مراجع أساسية وثانوية تخدم الموضوع (نصوص الفلاسفة أو مؤلفاتهم، دراسات نقدية، مقالات أكاديمية...).

(اختيار الموضوع هو نصف البحث)

ثالثاً- الخطوات العملية لاختيار الموضوع

اختيار الموضوع ليس عملية عشوائية، بل تمرّ بعدّة مراحل منهجية:

1- مرحلة الاستطلاع والاطلاع

يبدأ الباحث بقراءة عامة في المجالات التي تثير اهتمامه: الفلسفة السياسية، الأخلاق، الأنطولوجيا، فلسفة اللغة، الفلسفة الإسلامية... إلخ، تساعد هذه القراءة على **رسم خريطة معرفية أولية** يحدّد من خلالها المجالات التي تستحق التعمّق.

2- تحديد مجال البحث

بعد الاطلاع الواسع، يختار الباحث مجالًا عامًّا، مثل: فلسفة *الوجود* أو *الفكر النقدي* أو *الهرمنيوطيقا*، ثمّ يحاول تضييق المجال باختيار زاوية محدّدة ضمنه.

3- بلورة الإشكالية

تُعدّ الإشكالية قلب الموضوع، وهي تُصاغ على شكل سؤال مركزي يتفرّع عنه عدد من الأسئلة الثانوية، مثلاً:

الموضوع: مفهوم العدالة عند جون رولز.

الإشكالية : هل تمكّن رولز من تحقيق توازن بين الحرية والمساواة في نظريته في العدالة؟
الأسئلة فرعية:

- ما الأسس الفلسفية التي بنى عليها رولز نظريته؟
- ما مدى نجاحه في تجاوز النفعية الكلاسيكية؟
- هل يمكن تطبيق نظريته في السياق العربي؟

فكل موضوع فلسفي ناجح ينطلق من إشكالية واضحة.

4- صياغة العنوان المبدئي

بعد تحديد الإشكالية، يُصاغ العنوان المؤقت بشكل يعكس الفكرة الرئيسة، وقد يُعدَّل لاحقًا بعد التعمّق في البحث.

5- عرض الفكرة على المشرف

ينبغي للباحث أن يناقش اختياره مع الأستاذ المشرف أو لجنة البحث، فالتوجيه الأكاديمي في هذه المرحلة ضروري لتجنّب الأخطاء المنهجية المبكرة.

6- إعداد بطاقة قراءة أولية

تتضمّن المراجع الأساسية (كتب، مقالات، أطروحات...)، وبعض الملاحظات حول منهج البحث والفرضيات الأولية، هذه البطاقة تساعد الطالب في تنظيم أفكاره وتتبّع تقدّمه البحثي.

رابعاً- الصعوبات التي تواجه الباحث عند اختيار الموضوع

يواجه الطلبة في الفلسفة جملة من الصعوبات عند اختيار موضوع البحث، من أهمّها:

1. **الخوف من عدم الإضافة:** إذ يعتقد بعض الطلبة أنّ جميع المواضيع قد نوقشت من قبل، فيستسلمون للتكرار. والحقيقة أنّ التجديد ممكن دائمًا من خلال زاوية جديدة أو مقارنة مختلفة.
2. **ضعف التكوين المنهجي** :كثير من الطلبة لا يميّزون بين العنوان والإشكالية، أو بين الموضوع والمجال العام، مما يؤدي إلى غموض الاختيار.
3. **قلة المراجع** :خصوصًا في المواضيع الحديثة أو في الفكر العربي المعاصر. وهنا تظهر أهمية البحث في اللغات الأجنبية ومصادر الإنترنت الأكاديمية.
4. **تأثير التوجّهات الشخصية أو الإيديولوجية** :يجب أن يظلّ الباحث الفلسفي موضوعيًا قدر الإمكان، وألا يجعل ميوله الفكرية تحجب الرؤية النقدية.

خامساً- البعد المنهجي لاختيار الموضوع

الفلسفة لا تنفصل عن المنهج، فاختيار الموضوع يتطلّب وعيًا بالمنهج الذي سيُعتمد في معالجته:

- **المنهج التحليلي** إذا كان الموضوع متعلقًا بالمفاهيم واللغة.
- **المنهج المقارن** إذا كان البحث يقارن بين فلاسفة أو مدارس فكرية.
- **المنهج التاريخي** عندما يتناول الباحث تطوّر فكرة معينة عبر العصور.
- **المنهج النقدي أو التأويلي** عندما يكون الهدف تحليل النصوص أو نقد المواقف الفلسفية.

إنّ معرفة المنهج المناسب تساعد الباحث على **اختيار موضوع يتناسب مع أدواته المنهجية**، وتمنع الانزلاق في العموميات.

سادساً- أخطاء شائعة يجب تجنها

- اختيار موضوع عام جدًا مثل: الفلسفة والأخلاق أو الحرية في الفكر الإنساني.
- عدم وضوح الإشكالية أو غيابها.
- تكرار مواضيع مبحوثة دون إضافة جديد.
- الاعتماد على موضوع لا توجد حوله مصادر كافية.
- اختيار موضوع لا يتناسب مع التكوين الأكاديمي للطالب، خارج التخصص.

خلاصة

إنّ اختيار الموضوع في مقياس تقنيات البحث الأكاديمي الفلسفي **ليس مجرّد خطوة أولى، بل هو الخطوة الحاسمة التي يتأسس عليها كلّ ما بعدها**، فهو يختبر قدرة الطالب على إدراك الإشكال الفلسفي، وتحديد مجاله، وصياغة أسئلته بدقة، واختيار المراجع الملائمة لمعالجته.

ومن ثمّ، فإنّ البحث الفلسفي الحقيقي يبدأ من لحظة الوعي بالموضوع؛ لأنّ «الفلسفة هي فنّ طرح الأسئلة» كما يقول جيل دولوز في *ما الفلسفة؟* .(1991)

إنّ الطالب الذي يتقن اختيار موضوعه يكون قد قطع نصف الطريق نحو بحثٍ ناجح، لأنه أبدى **وعيًا فلسفيًا ومنهجيًا** يليق بمقام التفلسف، فالفلسفة ليست في الجواب النهائي، بل في **القدرة على تحويل التساؤل إلى مشروع معرفي منظم**.

قائمة المراجع والإحالات

1. عبد الرحمن بدوي، *مناهج البحث عند الفلاسفة المسلمين*، دار القلم، بيروت، 1968.
2. غاستون باشلار، *تكوين العقل العلمي*، ترجمة خليل أحمد خليل، دار النهار، بيروت، 1984.
3. بول ريكور، *الاستعارة الحية* (*La Métaphore Vive*)، باريس، سوي، 1975.
4. مارتن هايدغر، *ما معنى التفكير؟* (*Was Heißt Denken?*), Tübingen, 1954.
5. جيل دولوز وفليكس غتاري، *ما الفلسفة؟* (*Qu'est-ce que la philosophie ?*)باريس، منشورات مينوي، 1991.
6. محمد المصباحي، *التفكير الفلسفي العربي الحديث: مناهج ومفاهيم*، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2009.
7. عبد الجليل الكور، *منهجية البحث الفلسفي الأكاديمي*، منشورات جامعة محمد الخامس، الرباط، 2016.
8. محمد عابد الجابري، *بنية العقل العربي*، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1986.
9. فؤاد زكريا، *التفكير العلمي*، دار الفكر المعاصر، القاهرة، 1990.
10. فريد الأنصاري، *منهج البحث في الفلسفة الإسلامية*، دار السلام، الرباط، 2007.